تتعرض الطفولة البريئة فى جهات عدة وبلدان كثيرة من الكرة الأرضية إلى التشغيل المنهك طوال الساعات والساعات التى يتصل بها الليل بالنهار، التوظيف الإجبارى فى ترويج المخدرات ومختلف الممنوعات والتجنيد فى عصابات السطو والنشل والحروب الأهلية والمتاجرة بأجساد هؤلاء الأطفال الأبرياء متاجرة لا تعرف حدا بل تصل إلى استئصال أعضائهم من كلى وقلوب وأعين وبيعها إلى من يدفعون فى مقابلها أغلى الأثمان ومنها تقديم هؤلاء الأطفال الأبرياء لطلاب اللذة الغريزية والشهوات الحيوانية وقد راجت فى السنوات الأخيرة المتاجرة الجنسية بأجساد الأطفال ذكورا وإناثا وأصبحت من مستلزمات الدورة السياحية وهكذا اغتصب أطفال فوق العاشرة من أعمارهم ودونها وجروا إلى حمأة الفساد والرذيلة مكرهين حتى أصبحوا فيها من المحترفين وتحطمت بما تعرضوا له من عدوان جشع بشع شخصياتهم وغدوا رغم نعومة أظفارهم أبعد ما يكونون عن براءة وطهارة ونقاوة أقرانهم ممن تهيأت لهم الحماية العائلية والاجتماعية وحصنوا بالقيم الأخلاقية والدينية.

هدى الإسلام خير وقاية وحصانة للأطفال

والمفزع المحزن أن أمر هذه الظاهرة استشرت واستفحلت إلى درجة أن الضحايا يعدون اليوم بمئات الآلاف نعم بمئات الآلاف والإحصائيات الرسمية وذات الصبغة الدولية التى ليس فيها أدنى تهويل وترهيب والمطلق لصيحة الفزع خبراء ومختصون ومنظمات ذات باع طويل وخبرة واسعة فى الاشتغال بعالم الطفولة فى مختلف أوضاعها وبمختلف أجناسها وألوانها وأديانها.

وإزاء هذا التردى لابد أن تتحرك للاهتمام به والانكباب عليه، كل الطاقات الخيرة المدركة أن رجال الغد ونساء الغد هم أطفال اليوم وكما يكون هؤلاء الأطفال اليوم تكون مجتمعاتنا غدا.

الطفولة السليمة عنوان المجتمع السليم:

الطفولة القويمة السليمة هى عنوان مجتمع قويم سليم ورعاية الطفولة والعناية بها وحمايتها من كل عدوان يمكن أن تتعرض له مسئولية المجتمع بدون استثناء بداية بالأبوين اللذين يتحملان أمانة ورعاية أطفالهما والقيام بكل ما يستلزم انجابهما من تبعات وانتهاء بالمجتمع المحيط بالعائلة دون أن يتملص أى مكون من مكونات المجتمع من مسئوليات.

فالطفل ذكرا أو أنثى يجنى معه ومع أسرته والمجتمع كله ما يمكن أن يأتيه من تصرفات ايجابية أوسلبية بناءه أو هدامة فليس بين هذه الدوائر المحيطة بالطفل والتى أضيقها أو أقربها منه الأسرة،، أدنى حاجز يحول بين الخير أن يعم نفعه أوالشر أن يستشرى ضرره وعدواه.

ودينا الإسلامى الحنيف بهدى القرآن القويم وتوجيهات صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام اهتم اهتماما كبيرا بالطفولة ووفر لها كل الضمانات التى من شأنها أن ترعاها وتوفر لها أسباب الترعرع الطبيعى الذى يجعل منها مصدرا للإبداع والعطاء الذى تعم فائدته كل المجموعة بدون استثناء.

ولأجل ذلك تتحمل الأسرة وبالخصوص الأبوان المسئولية الأولى فى تنشئة الأبناء ورعايتهم الرعاية الشاملة ماديا ومعنويا ولا يقتصر دور الأبوين على مجرد الإنجاب

بل بمجرد الوضع تبدأ المرحلة الأصعب والأكبر والأطول.

الأطفال نعمة من نعم الله

فالأطفال نعمة من نعم الله على الأبوين وهم زينة الحياة الدنيا ولكن هذه النعمة ينبغى أن تقيد بشكر المنعم وشكره سبحانه وتعالى عليها إنما يكون بحسن تربية هؤلاء الأطفال وهم يولدون مهيئين لهذه التنشئة الحسنة فقد صح فى الحديث النبوى الشريف «أن الولد يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» والفطرة هى النقاوة والطهارة والسلامة وأى انحراف بالأطفال عن هذا الصراط المستقيم يتحمله الآباء والأمهات ويحاسبون عليه يوم القيامة قال تعالى﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد﴾ سورة التحريم الآية رقم ٦

ولضمان النشأة القويمة السليمة للأطفال حمل الإسلام الآباء مسئولية اختيار الوعاء الذي فيه يترعرعون - يعنى أمهاتهم - باعتبار الأمهات هن المدرسة الأولى:

الأم مدرسة إذا أعددتها
أعددت شعبا طيب الأعراق

ولأجل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا السياق «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس» وقال عليه الصلاة والسلام «إياكم وخضراء الدمن» ويعنى المرأة الحسناء فى المنبت السوء وقد جعل الإسلام للأم الحامل بالجنين صنوفا من الرعاية والعناية تقديرا لما تعانيه وتتحمله من مشاق وآلام، وتقديرا أيضا لما فى بطنها. ذلك الجنين الذى ينمو ويكبر وتفتحت شخصيته وهو لا يزال فى ذلك الرحم المظلم حتى إذا ما تم الوضع وجبت على الأبوين نحو أطفالها واجبات أخرى منها حسن اختيار الاسم، ومنها الإرضاع الكامل: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ سورة البقرة الآية رقم ٢٣٣ ومنها الإطعام والإكساء والمعالجة عند المرض وكذلك التربية والتعليم وكل ما من شأنه أن يجعل هذا الطفل ينمو ويترعرع وينشأ نشأة طبيعية متكاملة متوازنة تؤهله لمواجهة التحديات التى تنتظره فى مستقبل حياته باعتباره ولد لزمان غير زمان أبويه.

الرعاية للأبناء أشمل من الجوانب المادية

وكثيرا ما توفق الأسر والعائلات والآباء والأمهات إلى القيام بالواجب المادى نحو الأبناء والبنات وذلك بتوفير كل ما يطلبون ويحتاجون إليه من مسكن ومأكل وملبس ودواء ومصاريف دراسية وغير ذلك مما تتطلبه حياة الأطفال بل كثيرا ما يبالغ الآباء والأمهات فى هذا المجال ويتوسعون ولا يكتفون بالعاجل القريب بل يفكرون فى الأجل البعيد لأبنائهم فيحرصون على أن يتركوا لهم من بعدهم الأموال الوفيرة والأملاك الكثيرة وهذا العطف الأبوى على الأبناء جبلى خلقه الله فيهم وهو مشروع ولكن فى حدود الاعتدال ولأجل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك الصحابى الذى أراد أن يتصدق بكل ماله أو بنصف ماله وفى النهاية لم يأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا فى الثلث قال له «لئن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم بحالة يتكففون الناس»

فما ينبغى على الآباء والأمهات أن لا يهملوه وأن يضيفوا إلى الرعاية المادية لأبنائهم وبناتهم رعاية معنوية وأخلاقية تتمثل فى أدب رفيع وخلق رضى ودين قويم تصلح به حياتهم الدنيا ويجدون الثواب عليه فى الدار الآخرة.. بل هذا الثواب يلحق الآباء والأمهات نصيب منه فقد صح فى الحديث الشريف أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أوعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له) سواء كان ذلك الدعاء باللسان أو كان بالعمل الصالح والمعروف يسديه الناس فيكتب للآباء والأمهات وهم فى عالم الأموات الأجر الثواب والحسنات باعتبار أن الأبناء والبنات من عمل آبائهم وأمهاتهم الذى لا ينقطع بوفاتهم.

د. أشرف فتحى محمود الجندى

داعية إسلامى

رئيس أهل الفضل لتحفيظ القرآن الكريم

عضو الجمعية العالمية للصحة النفسية

عضو جمعية الاعجاز العلمى

ورغم أن النصوص تؤكد أن الإنسان لا يتحمل إلا ما قدمت يداه ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ سورة المدثر الآية رقم ٣٨ ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ سورة الإسراء الآية رقم ١٥ إلا أن الانحراف الذى يطرأ على تصرفات الأبناء والبنات هو فى الغالب ناتج عن تقصير الآباء والأمهات فى الفترة الأولى للتربية والتكوين والتوجيه وصدق من قال:

وينشأ ناشئ الفتيان منا
على ما كان عوده أبوه

وكثيرا ما عبر الأبناء عن تلك المسئولية الأبوية فى التقصير وعدم التربية والتوجيه ولسان حالهم يقول:

هذا جناه أبى على
وما جنيت على أحد

مسئولية الأطراف الأخرى

وإذا كانت هذه هى بعض ملامح مسئولية الآباء والأمهات تجاه أبنائهم وبناتهم وهى مسئولية أصبحت اليوم أصعب وأشد من ذى قبل

باعتبار المتدخلين الجدد فى مجال المساهمة فى نحت شخصية الأبناء والبنات والتأثير عليهم وهم كثير، إنهم المجتمع بكل مكوناته وبكل ما يدور ويتحرك فيه ابتداء بالمدرسة والشارع المتلاطم وانتهاء بوسائل الإعلام والتوجيه والتثقيف والترفيه فهؤلاء كثير وغيرهم ممن لم نذكرهم يتحملون مع الأسرة ومع الأبوين بالخصوص مسئولية التوجيه والتربية والتكوين والرعاية والعناية، لأن هذا الطفل إن صلح فصلاحه سيتجاوز نفعه شخصه وأسرته إلى المجتمع كله وهو لا قدر الله إن انحرف فإن ضرره سيتجاوز شخصه وعائلته إلى المجموعة بل أوسع من ذلك بكثير.

وبقدر ما ندعو الآباء والأمهات إلى مضاعفة جهودهم وتطوير وسائلهم وتوخى الحكمة والرقة والرأفة وسلوك مشكل الحوار الحر والبناء فى تربية أبنائهم واقناعهم بالتخلق بالأخلاق الكريمة والتأدب بالآداب الرفيعة فإن الأطراف المحيطة بالأسرة وكل مكونات المجتمع عليها أن تعتبر هؤلاء الأطفال هم أطفال المجموعة وأنهم بمجرد نزولهم إلى هذا العالم يصبحون أبناء لكل المجموعة التى تعيش مع بعضها وتتقاسم الواقع المشترك والمصير المشترك.

دائرة المسئولية واسعة فى الإسلام

ولقد وسع الإسلام من دائرة المسئولية فى تربية الأبناء والبنات والمساعدة على القيام بشئونهم المادية بالخصوص ووعد الإسلام بجزيل الثواب وعظيم الأجر لمن يكفل طفلا من أطفال المسلمين فقد السند وضاقت به الحال فقال عليه الصلاة والسلام «أنا وكافل اليتم كهاتين فى الجنة» وقال عليه الصلاة والسلام «خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه» ويهدد الإسلام أولئك الذين يسيئون معاملة الأيتام والأطفال الضعاف ويستحوذون على حقوقهم ويغتصبون أموالهم ويأكلونها ظلما وعدوانا، فهم يأكلون سحتا وارا وينتظرهم فى الآخرة عذاب شديد وما يفعله هؤلاء بأطفال غيرهم الضعاف من قهر وظلم واستغلال وامتهان سيفعل بأبنائهم وفلذات أكبادهم وما أروعه التعبير القرآنى فى تصوير ذلك التخويف والترهيب الذى توخاه المولى مع أولئك الذين يعتدون على الأطفال الصغار الأطهار الأبرياء والضعفاء يقول جل من قائل ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ سورة النساء الآية رقم ٩ وهذا الترهيب مؤت لا محالة ثمرته فى سيرة وسلوك من قد تحدثهم أنفسهم بالتعدى على الأطفال الضعاف وهو دافع لهم إلى الرحمة والشفقة والرفق واللين والحرص على دفع أى ضرر يمكن أن تتعرض له الطفولة.

من لا يرحم لا يرحم

والإسلام هو دين الرحمة ومن لا يرحم لا يرحم ورحمة من فى الأرض يستحق القائم بها رحمة من فى السماء وهل هناك أولى بالرحمة من الأطفال الصغار ولهذا أخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من صفوف أمته المتبعين لهديه من لا يرحم الصغار قال عليه الصلاة والسلام: (ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا) وقال عليه الصلاة والسلام: (ابغونى فى الضعفاء من أمتى فبهم ترحمون وبهم ترزقون وبهم تنصرون) وكان عليه الصلاة والسلام آية من آيات الله فى الرحمة والرفق والرأفة بعموم الناس وبالخصوص بالضعفاء الذين كان يمازحهم ويلاعبهم ويلاطفهم ويجبر خواطرهم ويمسح على شعر رؤوسهم ويضمهم إلى صدره وكان عليه الصلاة والسلام يطيل من أجلهم «فى صلاته لنفسه» سجوده وركوعه حتى يتموا لعبهم على ظهره، ويخفف من أجل الصبى الصارخ فى صلاة الجماعة ويقول لمن عاتبه فى ملاعبته وملاطفته لابنيه الحسن والحسين: (ماذا تريد منى أن أفعل لك إذا كان الله قد نزع من قلبك الرحمة.. من لا يرحم لا يرحم) وهدى الإسلام فى الرحمة بالأطفال والشفقة عليهم وتجنيبهم كل شر وضرر تجاوز أطفال المسلمين إلى كل الأطفال مهما كانت أجناسهم وأديانهم وألوانهم ولأجل ذلك أوصى الفاتحين خيرا بالأطفال كما أوصوا بالنساء والشيوخ والرهبان (لا تقتلوا الأطفال والنساء والشيوخ وستجدون أناسا فى صوامع نذروا أنفسهم لعبادة الله فاتركوهم وما نذروا أنفسهم إليه).

فى هدى الإسلام خير وقاية وحصانة للأطفال إن حضارة الإسلام وهدى دين الإسلام وسيرة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام وكذلك سيرة السلف الصالح فى معاملة الأطفال وحسن تربيتهم والوقوف إلى جانبهم وإلى جانب أسرهم فى الشدائد والملمات وتقديم العون والمساعدة إليهم فى سبيل أن يعيش أطفال هذه الأسر عيشة كريمة وإن ذلك كله خير وقاية وحصانة للأطفال وهو خير يعاد ويوجه للمسلمين اليوم كى يعتبروا كل أطفال المجموعة هم أطفال نتحمل جميعا المسئولية نحوهم باعتبارنا أمة واحدة وجسدا واحدا وبنيانا مرصوصا وباعتبار أن حاضرنا واحد مثلما أن مستقبلنا واحد ولا شك أن التصرف وفق هذه الرؤية وهذه العقلية المتضامنة والمتلاحمة يجنب مجتمعنا كل ما نسمعه ونشاهده ونقرأه على أعمدة الصحف وضمن التقارير الصادرة عن المنظمات الدولية المختصة برعاية الطفولة من أخبار وأرقام وصور ومشاهد مفزعة محزنة مدمية للقلب ومدمعة للعين فى أرجاء عدة من المعمورة وفى بلدان كثيرة الضحايا فيها من الأطفال بمئات الآلاف والأرقام فى تزايد مخيف الأمر الذى هبت لتدارسه والنظر فى خطورته ومحاولة وقف نزيفه الهيئات المختصة.